المرتكزات العلمية للبناء الحضاري للأمة الإسلامية من وجهة نظر الدين الإسلامي

الدكتور كمال لدرع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

تمهيد:

إن البناء الحضاري للأمة الإسلامية هو الشغل الشاغل لكل حركة تغييرية، وهو الهدف الأسمى من كل عمل دعوي، وهو الغاية المنشودة من الجهد المبذول من قبل العلماء والمفكرين. فكان لابد في هذا الإطار من البحث عن السبيل الأمثل لتحقيق هذه الغاية.

وفي الحقيقة أن أي محاولة من أجل إعادة البناء الحضاري للأمة يجب أن يستند على مرتكزات أراها ضرورية لبلوغ هذه الغاية المنشودة.

وهذه المرتكزات محل الدراسة في هذا البحث قد تحتاج إلى إثراء، أو تحتاج إلى مزيد من المراجعة والتنقيح، على أن بعضها لا يماري فيها أحد من أنها أس البناء الحضاري للأمة.

وقد عالجت هذا الموضوع ضمن الخطة الآتية:

المرتكز الأول: وجوب ربط العلم بالإيمان

المرتكز الثاني: وجوب كسب الإنسان للعلم والمعرفة

المرتكز الثالث: تمجيد العلم وإكبار العلماء

المرتكز الرابع: إزاحة العوائق أمام العقل المسلم

المرتكز الخامس: وجوب قيام العقل بفريضة التفكر والتدبر من أجل الإنتاج والإبداع والاكتشاف

المرتكز السادس: حرية الرأي وقبول الرأي الآخر في مجالات العلم والبحث

المرتكز السابع: ضرورة الوعي بسنن الحياة كأساس للبناء الحضاري للأمة

المرتكز الأول: وجوب ربط العلم بالإيمان

1 – غياب العلاقة بين العلم والدين في القرون المتأخرة: جرى في القرون الأخيرة الاعتقاد بأن العلم والدين نقيضان لا يلتقيان، والادعاء بأن الدين ثابت وأن العلم متغير. علاوة على أن الدين يهتم بالغيبيات وأحيانا بالخرافات مما لا يليق بالعقل المتحرر أن يتقبله.

والواقع أن هذا الاعتقاد غير سليم، لأنه يحكم على آلاف الأديان المنتشرة بين البشر بحكم واحد، فأي دين يقصدون ؟.

إن هذا الاعتقاد ينطبق على دين المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى إبان سيطرة الكنيسة على شئون الناس. ومن المؤسف أن كثيرا من المسلمين الذين تعلموا في الغرب، أو تأثروا بالثقافة الغربية قد تبنوا هذا الاتجاه وراحوا يروجون لتطبيقه حتى في بلاد المسلمين دون أن يعلموا أن الأمر في الإسلام مختلف كل الاختلاف عما وقع لأوروبا من جراء تسلط الكنيسة.

فمع وصول قسطنطين إلى الحكم وتبنيه للدين المسيحي ، ووصول المسيحيين إلى سدة السلطة، استبدت الكنيسة وأحكمت قبضتها على الناس، وتدخلت في كل مجالات الحياة، فصادرت التقدم العلمي وعاقبت بالإعدام بعض العلماء، وحرقت كتبهم، وشجعت الخرافات والتداوي بالشعوذة. فكان رد الفعل الأوروبيين نفي الكنيسة تماما من أمور المعيشة الإنسانية وفصل الدين عن الدولة، وانتشرت الأفكار الإلحادية. وعلى هذا الفكر قامت الحضارة الغربية التي لا تعترف بتزاوج العلم مع الدين[1].

أما الإسلام فالأمر فيه مختلف، فهو دين افتتح رسالته بكلمة "اقرأ"، وأقسم بآلة العلم الأساسية التي هي القلم، وامتن على الإنسان بتعليمه ما لم يكن يعلم[2]، وجعله مأمورا ومسئولا، وحثه على بذل جهده لاستلهامه سنة الله في خلقه، وهو ما يعبر عنه الآن بالبحث العلمي، وخاطب الذين يعلمون والذين يفقهون والذين يتفكرون، ورفع درجة العلماء من بين خلقه فقال:" إنما يخشى الله من عباده العلماء" . وجعل طلب العلم فريضة، وحض على قراءة الكتاب الواسع وهو كتاب الكون، وذم الذين عطلوا حواسهم فلم يسمعوا ولم يبصروا ولم يعقلوا[3].

وبهذا الدين الجديد دخلت الإنسانية طورا جديدا، وأقام المسلمون حضارة إنسانية ونهضة علمية، وتحررت العقول الباحثة عن العلم من صنوف القهر والرقابة باسم الدين، فكانت بحق رائدة المنهاج العلمي الذي نقلت عنه الحضارة الغربية المعاصرة.

وفي زماننا هذا الذي تقف فيه الإنسانية على مفترق طريق خطير بين تقدم علمي متزايد وقاهر وبين ضمور روحي قاتل وآفل تتراوح فيه بين البقاء والفناء أو الذوبان؛ فإن إنقاذ الإنسانية رهن باكتشافها تعاليم الإسلام وقيمه، والأخذ بها كما يؤخذ الدواء، ولكن

كيف تكتشف الإنسانية هذا الدواء دون أن يدلها عليه المسلمون ؟ وكيف يدلها عليه المسلمون إذا هم أنفسهم لم يستدلوا عليه ولم يدركوا قيمته. ولم يستقر في وجدانهم بعد، وهم يعيشون انفصاما بين عقيدتهم وسلوكهم. وبين إنتاجهم وحياتهم. فضلا عما تعانيه الأمم الأخرى من فراغ روحي وإنتاج رغم ما بلغته من أبحاث علمية كبيرة. واكتشافات تكنولوجية باهرة استفاد منها المسلمون أنفسهم. وهم أمة الشهادة وأمة الدعوة وأمة الأمر بالمعروف والناهية عن المنكر.

ولم تستطع البشرية اليوم بالعلم وحده أن تعالج الكثيرة من مشاكلها. وأن تجد الحلول لكثير من أمراضها. مما يتأكد يوم بعد يوم ضرورة المزج بين العلم والإيمان.

2 . **علاقة العلم بالإيمان:** إن العقيدة الإسلامية تربط العلم بالإيمان. فالعلم بدون إيمان شجر بلا أوراق. ثم العلم نفسه يدعو إلى الإيمان. والإيمان بدوره يحث على العلم. والفصل بينهما يؤدي إلى عواقب وخيمة.

وفصل العلم عن الإيمان يحول الإيمان إلى جمود وتعصب أعمى. وأن غياب العلم في كثير من القضايا الدينية يجعل المؤمنين الجهلة آلة بيد المنافقين. والتاريخ الإسلامي شاهد على فتنة الخوارج وما نتج عنها من سفك للدماء باسم نصرة الدين.

ثم إنّ الإنسان بلا إيمان ولو كان عالما قد يتسبب في ويلات وكوارث. فيسخر علمه في الإفساد والطغيان. وعليه فالعلم بحاجة إلى الإيمان كحاجة الجسد إلى روح. لأنّ العلم لوحده عاجز بطبيعته عن بناء الإنسان الكامل. فالتربية العلمية الخالصة تبني نصف إنسان لا إنساناً كاملاً. وتصنع إنساناً قد يكون قوياً وقادراً ولكنه ليس فاضلاً بالضرورة. فهي تصنع إنساناً ذا بعد واحد. هو البعد المادي. أما الإيمان فهو الأساس في بناء شخصية إنسانية متوازنة. متشبعة بقيم الخير والعدل.

ولقد بلغ اغترار الأوربيين بالعلم حداً وصل بهم إلى حد التأليه والعبادة. حتى وإن تظاهروا بإقامة شعائر العبادة في كنائسهم. ولّما كان الدين يرتكز على قواعد غيبية خارج نطاق المادة. اعتبروه ظاهرة غير علمية.

وعلى هذا الأساس ظهر بينهم داء الفصل بين الدين والعلم. وإذا كان هناك صراع بين العلم والدين في بعض فترات التاريخ. كما حدث ذلك في تاريخ المسيحية. فإنّ ذلك لا

علاقة له بالأديان السماوية4 ومنها الدين الإسلامي[5]. وإنما هو لون من ألوان الانحراف عن الدين، لأن الدين ليس مسؤولاً عما يرتكب الناس من انحرافات وفساد.

ومما يؤسف له، أنّ بعض الأصوات ترتفع هنا وهناك تنادي بالفصل بين العلم والدين الإسلامي، بدعوى أنّ أوروبا تنكّرت للدين فتقدمت علمياً وحضارياً. ونحن تمسكنا بالدين فتخلّفنا. إنّ عقول هؤلاء إما قاصرة عن إدراك وظيفة العلم الذي هو أداة لكشف الحقائق الموضوعية، وتفسير الواقع تفسيراً محايداً بأعلى درجة من الدقة والعمق، أو أنّ هذه العقول جاهلة بمنهج الإسلام الذي ما انفك يدعو إلى العلم، أو أنها عقول استأجرت لتحقيق ما لم يحققه أعداء الأمة الإسلامية.

وقد خفي على هؤلاء ما يعيشه هذا العصر من تقدم علمي ومادي بلغ ذروته، وفي المقابل وصلت الإنسانية إلى حضيضها من التقاتل الوحشي والتخاصم الذي يقطع أواصر الإنسانية، ويجعلها تعيش في رعب دائم وخوف من الدمار، كما وصلت إلى الحضيض و أحطّ الدركات في الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية التي لا توجد عند الحيوان. وعليه فإنّ العقيدة الإسلامية لها فضل كبير على مناهج التربية التي تسعى لبناء الإنسان، لتأكيدها على دور الإيمان والعلم معاً في بناء شخصية الإنسان، وبفصل العلم عن الإيمان يغدو الإنسان شخصية غير متوازنة تسيء أكثر مما تحسن، أو تسيء وتحسب أن ذلك إحسانا، لأن معايير الحسن والقبح لم تعد تحت مراقبة الدين.

لذلك فإن الإنسان بحاجة ماسة إلى قوة إيمانية تتمكن من إحياء ضميره[6]، وملء نفسه بالطمأنينة[7]، وتمنحه اتجاهاً أخلاقياً يحقق إنسانيته، وهذا عمل يعجز عنه العلم، وإنما هو من مهام الدين وحده.

عندما بدأت أوربا عصر النهضة العلمية الحديثة بعد ظلمات القرون الوسطى حدث أول صدام بين العلم والدين، وبين العلماء ورجال الكنيسة. وقد استمر هذا الصراع حقبة طويلة من الزمن وبلغ من الشدة بحيث كانت الكنيسة تأمر بإحراق العلماء أحياء أو وضعهم على الخوازيق بتهمة السحر والهرطقة، ولم ينته هذا الصراع إلا بإقرار مبدأ فصل الدين عن العلم[8].

وإذا كانت هذه الخطوة في أوروبا قد أفادت العلم بإطلاق حرية البحث والتفكير فقد كان عواقبها بُعد العلم والعلماء عن الدين... وعن القيم والمثل العليا التي جاءت بها الأديان".

وللأسف الشديد عندما بدأ العالم الإسلامي عصر النهضة العلمية الحديثة فقد نقل عن الغرب كل نظمه العلمية وأسلوبه بغير تمييز.. بما في ذلك مبدأ فصل الدين عن العلم... وهذا خطأ كبير لا مبرر له.. فالإسلام يحث على العلم ويحترم العلماء10 ولا يقف عائقاً أمام حرية البحث والتفكير العلمي.

ومن هنا كان لا بد من الدعوة من جديد إلى ربط العلم بالدين، لا في بعض العلوم فقط، كعلم الطب مثلاً، ولكن في شتى العلوم والمعارف المادية والإنسانية. مثل علم الهندسة والرياضيات والفيزياء، والعلوم الاجتماعية والفلسفية وعلم النفس...

والهدف من هذا الربط إنشاء جيل من المسلمين ملتزم بالقيم والمثل العليا والأخلاقيات التي جاءت بها الدين. والقضاء على ظاهرة البعد عن الله التي تفشت بين أهل العلم، ثم رفع المستوى العلمي بين العلماء المسلمين بفضل العودة إلى الدافع العقائدي الذي كان يحث العالم المسلم على إتقان العمل والتفاني والسبر في العلم لكي يخدم به دينه ومجتمعه، ويبني به حضارته، مع ما تفيده البحوث العلمية في ترسيخ الإيمان وزيادته بما تقدمه من براهين علمية.

وحين نتأمل في موقف الإسلام من العلم نجد ترابطاً وثيقاً بين العلم والإيمان. فهما متماسكان، كل منهما يخدم الآخر. فكلما ازداد الإنسان علماً كلما ازداد يقيناً ومعرفة وخشية لله عز وجل .قال تعالى مبينا أن العلماء هم أشد الناس خشية له ومعرفة بمقامه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[11].

فالعلم يهدى إلى الإيمان ويقوي دعائمه. والإيمان يدعو إلى العلم ويرغب فيه. هذه العلاقة الوثيقة لا نجدها في غير الإسلام يقول روجيه جارودي: (ولم يفصل الإسلام الحكمة عن العلم ولم يقبل معالجة أي فرع من فروع العلم بمعزل عن العقيدة التي هي هدف في ذاتها)[12].

ولكي ترتقي الأمم وتتقدم فلا بد لها من الإيمان والعلم معاً، لأن العلم وحده قد يرفع مجتمعا حتى يعانق السماء رفاهية ورغداً وقوة، لكنه سرعان ما يتساقط إلى الحضيض. وكم من مجتمع غني قوي لكنه يسود بين أفراده القلق والفساد والانحلال[11]. قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[12].

ولقد فاق المسلمون غيرهم قرونا وعقوداً من الزمان حين سمت عندهم مكانة العلم، وأخلصوا في طلبه وأكرموا أهله، وسبقوا عصرهم في شتى العلوم، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترقد في ظلام دامس وتغط في سبات. وهاهو العالم الإسلامي في هذا الزمان وقد تبدل حاله وصار في مؤخرة الركب، صار تابعا بعد أن كان متبوعا، مغلوبا بعدما كان غالبا، لأنه وقع عنده الفصل بين العلم والدين، وبين العقيدة ومجالات الحياة[13].

ومن هنا فلا عودة إلى سابق عزة ومجد المسلمين إلا إذا أقبل أهله على العلم من منطلق إيماني خالص. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره، وإذا كان يطمح إلى القيادة فلا بد من الاستقلال التعليمي. بل لا بد من الزعامة العلمية وما هي بالأمر الهين، إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة التدوين والتأليف الواسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق، والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه. إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولي القوة، وهي من شأن الحكومات الإسلامية، تنظم لذلك جمعيات، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار. ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن الغرب ... ، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكومتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد، وتنظيم الشئون المالية على النظم الأوربية، وتحل مشاكل اقتصادية عجزت أوربا عن حلها. وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذي

يهدده. فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أيما استعداد).

المرتكز الثاني: وجوب كسب الإنسان للعلم والمعرفة

من المسلمات التي لا تخفى على أحد أن الدين الإسلامي يحث بقوة على كسب العلم والمعرفة، ومن يتأمل سور القرآن الكريم يجد ذلك يتكرر كثيرا بعبارات صريحة: ﴿... قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[16]، ﴿... يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾[17]، ﴿وقل رب زدني علما﴾[18]، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[19].

وفي السنة أيضا أحاديث الرسول ﷺ تصبُّ في هذا الاتجاه، وتقرُّ بأنَّ العلم يشكِّل عماد الدين، وفيه حياة الإسلام[20]، وتحثُّ على طلبه، وتكشف عن فضيلته، فمداد العلماء – في نظر الإسلام – ينافس دماء الشهداء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، وفي هذا الصدد: يقول الرسول ﷺ: " طلبُ الْعلْمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلمٍ وواضعُ الْعلْمِ عند غير أهْله كمُقلِّد الْخنازير الْجوْهر واللُّؤْلُؤ والذَّهب"[21]، ويقول أيضا: "... ومنْ سلك طريقًا يلْتمسُ فيه علْمًا سهَّل اللَّهُ لهُ به طريقًا إلى الْجنَّة وما اجْتمع قوْمٌ في بيْتٍ منْ بُيُوت اللَّه يتْلُون كتاب اللَّه ويتدارسُونهُ بيْنهُمْ إلَّا نزلتْ عليْهمُ السَّكينةُ وغشيتْهُمُ الرَّحْمةُ وحفَّتْهُمُ الْملائكةُ وذكرهُمُ اللَّهُ فيمنْ عنْدهُ ومنْ بطَّأ به عملُهُ لمْ يُسْرعْ به نسبُهُ"[22].

ولنتأمل في هذه المقارنة البديعة التي يعقدها الإمام علي رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي بين العلم والمال، وبيان فضل العلم على المال، قال رضي الله عنه: "يا كُميل العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرُسك وأنت تحرسُ المال، والمالُ تنقُصُهُ النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيعُ المال يزول بزواله. يا كميل بن زياد، معرفةُ العلم دينٌ يُدانُ به، به يكسبُ الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكمٌ، والمالُ محكوم عليه.يا كميل، هلك خُزّانُ الأموال وهُمْ أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[23].

ونتيجة للتوجيه القرآني والنبوي تحرر العقل المسلم من أسر الجهل والتخلف، وانطلق في آفاق العلم الواسعة، فأخذ يتأمل الظواهر الكونية، ويكتشف أسرار الطبيعة، من خلال المنهج التجريبي الذي وجهته إليه عقيدته، وهو المنهج الذي قام عليه العلم الحديث.

يقول: (جب) في كتابه: الاتجاهات الحديثة في الإسلام: «أعتقد أنّه من المتفق عليه أنّ الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون، قد ساعدت على تقدّم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة. وأنّه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى».

وللإنسان أن يقف مبهوراً أمام عظمة العقيدة الإسلامية، التي أحدثت ذلك الانقلاب الحضاري في نفوس أبناء الصحراء حتى صاروا طليعة العالم كلّه في العلم والمعرفة وميادين الحياة، وهذا بفضل قيامهم بفروض الكفاية، التي هي واجبات شرعية موكولة إلى الفئة القادرة من الأمة.

ولقد تحدث العلماء عن فروض الكفاية التي إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين. وإذا لم يقم بها أحد أثم جميع القادرين، ومن هذه الفروض تعلم العلوم التي تستغني بها الأمة عن أعدائها وتدافع بها عن كيانها[24]. والله سبحانه وتعالى يقول في سورة الأنفال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[25].

فكل قوة يستطيع المسلمون إعدادها ثم يقصّرون فإنهم آثمون. والعلوم الحديثة بكل جوانبها واجبة على الأمة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم ليحقق لهم التفوق على غيرهم ولتكون لهم القوة على عدوهم، فهو فرض كفائي عليهم. تأثم الأمة إذا قصرت فيه[26].

وفي ظل تعاليم الإسلام السمحة وحضارته الباهرة وترغيبه في طلب العلم وتكريمه للعلماء، نبغ المسلمون في العلوم كلها والتمسوا المعرفة من الشرق والغرب فترجموا كتب العلوم الفارسية واليونانية وغيرها وشجع الخلفاء على هذه الحركة العلمية، حتى كان الخليفة المتوكل يعطي حنين بن إسحاق أشهر المترجمين وزن ما يترجمه ذهباً. ولم يقتصر المسلمون على الترجمة، بل تابعوا البحث والدراسة، والتعديل والتطوير، حتى ابتكروا وطوروا وسبقوا غيرهم. فبرز منهم علماء كبار طبقت شهرتهم الآفاق[27].

إن العلم الذي تنهض به أمتنا هو كل علم نافع، سواء كان من علوم الشريعة أو من علوم الطبيعة أقصد كل العلوم التي يحتاجها الناس في حياتهم كالطب والهندسة والزراعة

والكيمياء وعلم الأحياء وعلم الفيزياء وعلم الإحصاء وسائر العلوم التي تعد من المقومات الأساسية للنهضة الحضارية. العلوم التي توجّه الإنسان وتأخذ بيده وتيسر له القيام بمهمته في الوجود[28].

المرتكز الثالث : تمجيد العلم وإكبار العلماء

ففي الوقت نفسه الذي حطّ الإسلام من مكانة الجاهل وأسقطه إلى الحضيض. فإنه رفع من مكانة العالم ووضعه في منزلة أقرب ما تكون إلى النبوة. قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[29]. والعلماء هم الوريث المؤهل لتحمل ميراث النبوة، وتبليغه للناس.

وفي قصة طالوت في القرآن ما يدل على قيمة العلم، فعندما اعترض قومه على توليه القيادة، بين لهم نبيهم أنه استحق القيادة بفضل العلم. يقول تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء ... ﴾[30].

إن الدين الإسلامي جعل العالم في قمة الهرم الاجتماعي. وفي ذلك رسالة كافية للإعراب عن تكريم العلم والعلماء.

والإسلام وهو يؤسس لمكانة العلم والعلماء، أعطى للعلماء شرف التعرف على الحقيقة الكبرى وهي التوحيد، قال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾[31]. فإن مجرد المعرفة والاطلاع على تلك الحقيقة التي هي أس الدين شرف عظيم يمنّ به الخالق جل علا على عباده، وإنما يدرك هذا الأمر العلماء الذين هم أعرف الناس بالله سبحانه. أما الجهلة والغافلون فإنهم لا يدركون هذا المعنى أبداً. وهذا عابت عليهم الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[32].

والطريق إلى هذه المعرفة الجليلة هو العلم عن طريق العالم الذي يحمله، حيث يقول تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ... ﴾[33]، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ... ﴾[34].فهذا الأمر لوحده يعد من أكبر

المدح التي وجهها الخطاب القرآني للعلم والعلماء. قال تعالى: " ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[35]. وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم لاسيما علم التوحيد الذي هو أساس كل علم ومدار كل معرفة.

وجعل سبحانه العلم أعلى وأشرف وأول منة امتنّ بها على ابن آدم بعد خلقه وإبرازه من ظلمة العدم إلى ضياء الوجود. فقال: ﴿وعلّم آدم الْأسماء كلّها ثمّ عرضهمْ على الْملائكة فقال أنْبئوني بأسْماء هؤلاء إنْ كنْتمْ صادقين﴾[36]، وبهذا العلم فاق الملائكة. وأول ما نزل من الوحي على نبينا محمد ﷺ: ﴿اقْرأْ باسْم ربّك الّذي خلق خلق الْإنسان منْ علق اقْرأْ وربّك الْأكْرمْ الّذي علّم بالْقلم علّم الْإنسان ما لمْ يعْلمْ﴾37. فتأمل كيف افتتح كتابه الكريم المجيد – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم عليم – بنعمة الإيجاد، ثم أردفها بنعمة العلم. فلو كان ثمّة منة أو توجد نعمة بعد الإيجاد هي أعلى من العلم لما خصه الله تعالى بذلك.

هكذا أسس الدين الإسلامي لمكانة العلم والعلماء، ثم انطلق يؤكد هذه الحقيقة في خطاباته الشرعية ليبين لنا مكانة العلماء في السلّم الاجتماعي. فبين أن مكانته تقترب من مكانة النبوة. وأي مكانة أعظم من هذه المكانة الراقية، وهي بذلك تتعالى حتى على مكانة العباد والمتنسكين.

فالإسلام يجعل العلم يتسامى على كثير من أنواع العبادات. وأن قليل العلم يترجح على كثير العبادة. قال رسول الله ﷺ: "... وإنّ الْملائكة لتضعُ أجْنحتها رضاء لطالب الْعلْم وإنّ الْعالم ليسْتغْفرُ لهُ منْ في السّموات ومنْ في الْأرْض حتّى الْحيتانُ في الْماء وفضْلُ الْعالم على الْعابد كفضْل الْقمر على سائر الْكواكب إنّ الْعلماء ورثةُ الْأنْبياء إنّ الْأنْبياء لمْ يورّثوا دينارًا ولا درْهمًا إنّما ورّثوا الْعلْم فمنْ أخذ به أخذ بحظّ وافر"[38].

كل ذلك يزيد من شرف العلم ومكانة العلماء. وخطاب الوحي لا يتوقف عند هذا الحد وإنما يواصل تسجيله للمدح والإطراءات بتمييز أهل العلم عن الجهلة. فقال تعالى: ﴿...قلْ هلْ يسْتوي الّذين يعْلمون والّذين لا يعْلمون إنّما يتذكّرُ أولو الألباب﴾[39].

فكل الفضائل والكرامات تتصاغر أمام المكانة العظيمة التي يحتلها العلم، والتي يضفيها بدوره على أهله.

هذه هي إذاً إشارة أخرى يمكن أن نفهم من خلالها الصورة الفعلية للعلم في الخطاب الديني. فالعلم هو على العكس من الجهل وسلبياته. فهو يؤدي إلى استواء العقل والمجتمع، والهداية إلى الصراط المستقيم. وهو ما تأكد معناه من خلال مخاطبة ابراهيم عليه السلام لأبيه. حيث قال تعالى: ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾[41].

فالهداية إلى الصراط السوي الذي يستوعب كل مجالات الحياة، إنما هي نتيجة طبيعية لتوفر عنصر العلم. وفي ذلك إشارة إلى أن الجهل لا يؤدي إلا إلى عكس ذلك تماماً من أنواع الضلال والانحراف في العقيدة والسلوك.

يتبين مما سبق ذكره أنه يجب على المجتمع أن يفسح المجال لأهل العلم للارتقاء إلى المناصب المهمة في الأمة دون سواهم. فهناك مواقع بارزة ومهمة جداً في الأمة ينبغي أن يتسلمها من يتوفر فيه عنصر العلم. كمناصب الوزارة والقضاء والإدارة والإمامة والإفتاء وغيرها. لأن تقدم المجتمع بأهل العلم. وأن هلاكه وتدهوره بغياب أهل العلم وقلتهم. أو بتغييبهم. يقول الرسول ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[41].

المرتكز الرابع: إزاحة العوائق أمام العقل المسلم

مكانة العقل في الإسلام: للعقل مكانة كبيرة في الدين الإسلامي. فهو أصل في التوصّل إلى الاعتقاد الصحيح، وهو دليل من أدلة الاجتهاد. ومن جانب آخر يشكّل العقل دعامة الإنسان المؤمن. فكثيرا ما كان الخطاب القرآني ينتهي بهذا التعقيب: " يعقلون"، وقوله: " أفلا تعقلون".

وقد بلغت النصوص التي تتناول التنبيه إلى دور العقل المئات. ومن خلال نظرة عامّة إلى هذه النصوص نكتشف أن مشروع الإسلام في إعطاء العقل دوره الحقيقي قد جاء على مرحلتين: فهو يبتدئ بتحرير العقل عن طريق إزاحة القيود والعوائق التي تقيّده وتحدُّ من نشاطه الحقيقي، وتقوده إلى أخطاء خطيرة بسبب ذلك. ثم ينتقل إلى توجيه طاقاته. حتى يجتهد ويبدع وينتج في ميادين العلم والمعرفة والحياة.

العائق الأول / الجهل: إن الدين الإسلامي كرم الإنسان بما هو إنسان في قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾[42]. وتجاوز حد التكريم بأن أعطاه وساماً شرفياً عظيماً حين اعتبره خليفة لله سبحانه وتعالى على أرضه. حيث قال تعالى: ﴿وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[43]. وزاده تشريفا عندما حمله أمانة الدين دون سواه من المخلوقات الأخرى. حيث انتخبه لهذه المهمة النبيلة والعظيمة[44]. فقال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[45]. ولا شك في شمولها لمطلق الإنسان ...

وإذا كان الدين قد أعطى الإنسان هذه المنزلة الرفيعة. ونظر إليه نظرة مثالية سما بسببها على كافة المخلوقات. فقد قيد ذلك بعدم سقوط الإنسان إلى ما دون الحيوانات عند افتقاد الشروط الأساسية المكونة لإنسانية الإنسان.

فحيث إن الإنسان فضل بعقله وتميز به على سائر المخلوقات. فلابد أن يكون لهذا العقل حركة يؤدي من خلالها دوره الحقيقي. فإذا انعدمت هذه الحركة فقد مميزات الإنسان. وفضل التكريم. وهذا السقوط لا يخرج الإنسان فقط عن دائرة الإنسانية ويجعله في صف واحد مع سائر المخلوقات. وإنما يجعله أنزل منها مرتبة. لأنه حاز ما لم تحزه (وهو العقل) فأهمله . بينما هي لم تملك القدرة العقلية فأصبحت معذورة.

إن خطورة الجهل تكمن في حجب العقل عن إدراك الحقائق. ومعاداة كل ما يجهله. ورفض كل ما غابت عنه حقيقته. وهو ما جعل الكثير من الناس قديما وحديثا يعرضون عن الحق. ويسيئون ولا يحسنون. يفسدون ولا يصلحون. ويظنون أنفسهم أنهم على هداية. كما قال تعالى في شأنهم: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[46].

فتعطيل العقل عن أداء دوره والقيام بوظيفته سببه الجهل. والجهل سبب كاف في إخراج الإنسان عن إنسانيته. ويجعله دون الحيوانات شأناً ... قال تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[47]. وقال أيضا: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[48].

إن الدين أنزل الجاهل الذي لا يسمع ولا يعقل فجعله أقل مرتبة من الحيوان[illegible]. وفي ذلك تسفيه وتحقير شديد للجهل ولمن يتصف به.

هذه صورة تقع في سياق تسفيه الجهل. وهي تقتضي سحب المميزات الخاصة بالإنسان لأنه لم يعد أهلا لذلك. وهناك صورة أخرى تزيد من حدة التسفيه. تتمثل في تشبيه الجاهل بالميت. فإنزال الجاهل منزلة الميت إعدام لمكانته وتحقير لذاته. واعتباره شيئا مؤذيا بين عامة الناس لابد من إقباره.

ثم تتوالى عبارات الإسقاط للجاهل من قبل نصوص القرآن والسنة. بل إن في هذه النصوص ما قد يكون أشد وقعاً على الجاهل. وذلك حين صورته على أنه وباء اجتماعي ينبغي تجنبه. فقد تضافرت النصوص الداعية للهروب والإعراض عن الجهلة. من ذلك قوله تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[illegible].

وهذه دعوة صريحة لمقاطعة اجتماعية مع الجهلة. ولا شك أن للمقاطعة أثرا عميق على نفسية الإنسان.

هكذا نرى كيف صنف خطاب الشرع مرتبة الجاهل. حيث وضعه موضعاً لا يحسد عليه. بأن سلبه إنسانيته واعتبره عديم الفائدة وأوصى بمقاطعته. وفي كل ذلك تسفيه شديد له.

إن الدين الإسلامي أثار أمراً آخر بالغ الأهمية ذا أثر نفسي واجتماعي كبير. وذلك حين قرر عدم المساواة بين الشريحتين. شريحة أهل العلم وشريحة الجهلة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[illegible]. ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[illegible].

فإعلان القرآن عدم المساواة بين العالم والجاهل فيه ما لا يخفى من الأثر. إذ إنه على الصعيد النفسي يشعر الجاهل بالدونية، وفي ذلك تسوير له[illegible]. حيث يخاطب علناً بأنه جاهل وشأنه دون شأن العالم.

والشعور بالدونية له أثره وضغطه على الإنسان. لأنه يرتبط مباشرة بكرامته الذاتية ومكانته الاجتماعية. ومن طبيعة الإنسان أنه يحب ذاته ويريد لها الرفعة والتفوق على الغير. كما أن من طبيعته التطلع للحصول على مكانة اجتماعية حسنة في محيطه. فلا يكاد إنسان يخلو من هاتين الطبيعتين. ولهذا فإن عدم مساواته بغيره له أثره على النفس. ولا شك أن

هذا الأمر بالغ الخطورة وشديد الأثر. وهو من المحفزات المهمة نحو كسب العلم والتخلص من الجهل.

ونصوص القرآن الكريم تؤكد في كثير من معانيها على أن أكبر الانحرافات في العقل البشري والسلوك الإنساني تعود في حقيقتها إلى عامل الجهل.

فالجهل الذي كان شائعا عند العديد من الأقوام بما فيهم من عاصر الرسول ﷺ من كفار قريش وغيرهم، كان السبب الأساسي في حدوث الانحرافات العقلية المتمثلة في الكفر بالله سبحانه، وعبادة الأصنام. والتكذيب بنبوة الرسول ﷺ[55]. كما أنه السبب أيضا في تشويه السلوك الاجتماعي والانحراف الخلقي. فانتشار الجهل تحدث الجرائم والنزاعات والاعتداءات والمظالم وتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية[56].

وإذا كان الجهل هو السبب في حدوث هاتين الآفتين – الكفر والانحراف الاجتماعي – فإن هذا يعتبر دليلا كافيا على أن العلم هو الطريق السليم لهداية العقل البشري إلى الإيمان، وتقويم السلوك الاجتماعي.

وهذه بعض النصوص القرآنية التي تبين آفة الجهل:

أ – بيان أثر الجهل في انحراف العقل. يقول تعالى: ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾[57]. ﴿قالوا ائتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون﴾[58]. وهناك آيات كثيرة غيرها تضمنت عبارة (لا يعلمون). وكلها تصب في هذا المعنى.

ب ــ بيان أثر الجهل في انحراف المعاملات الاجتماعية. والآيات في ذلك كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾[59]. وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾[60].

العائق الثاني: التقليد الأعمى

نبذ الإسلام التقليد الأعمى، واعتبره ــ بعد الجهل ــ أهم معوق لدور العقل ومعطل له. حيث يصير أسيرا لأحكام خاطئة. وأمثلته في القرآن الكريم كثيرة جدا. من ذلك ما كان يعرضه من مواقف المشركين من الدين الإسلامي حيث كان رفضهم له ليس عن علم وبرهان وإنما عن تقليد واتباع. فهؤلاء المشركون كانوا يفتخرون إلى آدنى حجة

ذات قيمة في ما يعتقدون من عبادة الأوثان والعقائد الزائفة. و أنّ أقصى ما يملكونه من حجة هو أنهم وجدوا آباءهم على ذلك. فتمسكوا به. ﴿بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مُهتدون﴾[1].

ثم يؤكد أنّ هذا صار سلوك مستحكما لدى الكثير من الناس. الذين أغلقوا على أذهانهم منافذ الوعي والفهم. قال تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مُترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مُقتدون﴾[2].

وهكذا يسوق مقولتهم هذه مرتين في آيتين متتابعتين ليجسّد ما تنطوي عليه هذه المقولة من تهافت. وما يغيب فيه هؤلاء من جهل متجذّر موروث لا يصغي لدعوة حق ولا لبرهان ساطع. بل ليس لديهم أكثر من ترديد مقولتهم تلك ﴿أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا﴾[3]!!. حتى لو جاءهم متحدياً لما وجدوا عليه آباءهم من اعتقاد فاسد. ﴿قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾[4] ؟ حتى مع مثل هذه الاستثارة لا يبحثون عن برهان. ولا يحركون عقولهم للنظر والتأمل والتفكير. وبقوا على بل عنادهم. و ﴿قالوا إنّا بما أُرسلتم به كافرون﴾[5]. و ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾[6]!!. ويكرّر القرآن النكير على هؤلاء في مواضع متكررة هذا العائق الخطير. وذلك لما لاحظه من استحكام وترسخ هذه الآفة لدى أُمم متتابعة كحجة واهية واجهوا بها أنبياء الله تعالى. ولا يستبعد أن يكون لها امتداد في مستقبل الأمم أيضاً. وقد نبه القرآن أن هذه الآفة كما تكون على مستوى المعتقدات تكون أيضا على مستوى السلوك والمعاملات. وهذه الحقيقة صورها بقوله: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾[7]. و ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾[8]!!. بعد هذا يبيّن القرآن الكريم الجزاء الذي ينتظر قوماً مضوا على هذا النهج والسلوك. حتى لا يقع من بعدهم في مثل ما وقعوا ﴿فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبةُ المكذّبين﴾[9].

وننبه هنا أن من أخطر أنواع التقليد الأعمى تقليد الأشخاص الذين صارت لهم في نفوس المقلدين قداسة بحيث يتلاشى معها دور العقل في النظر والتفكير والنقد. وكأن هؤلاء الأشخاص قد أصبحوا في أنفسهم ميزاناً للحق. فلا يصح أن توزن أقوالهم وأعمالهم أو تعرض للنقد والنظر. هذا النوع من التقليد الذي كان ولا يزال مصدراً للكثير من الأخطار في العقائد والمواقف[10]. وقف إزاءه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

موقف الكاشف عن سرّ الخطأ فيه والمعلّم للطريق الصحيح في التماس المعارف. ذلك حين جاءه بعض من ذهله وقوف بعض الصحابة معارضين ومحاربين لعلي بن أبي طالب فاستنكر أن يجتمع هؤلاء على خطأ، وذكر ذلك لأمير المؤمنين رضي الله عنه فأجابه: «إنك ملبوس عليك. إن دين الله لا يعرف بالرجال، بل بآية الحق، فاعرف الحق تعرف أهله».

إن الإسلام إذ يبين العوائق التي تعطّل دور العقل إنما ليوجه طاقته ــ بعد أن حرّرته العقيدة الإسلامية من القيود التي تأسره ــ من خلال الالتفات والتدبر في الكون والحياة، ومن أجل الإنتاج والإبداع والبناء.

المرتكز الخامس : وجوب قيام العقل بفريضة التفكر والتدبر من أجل الإنتاج والإبداع وهو ما يتجلى في المجالات الآتية:

أولاً: التفكر والتدبر في آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس:

ومما يلفت الانتباه في هذا المجال دعوة القرآن الإنسان بإلحاح إلى النظر والتأمل في مشاهد الكون. والتفكر في مجرى حوادثها، والأهم من ذلك كلّه جعل هذا الكون منطلقاً للوصول إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى خالقه ومبدعه، ثم اكتشاف السنن والقوانين التي تسير هذا الكون للقيام بوظيفة التسخير. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[71]. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[72]. ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ..﴾[73]، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[74]، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾[75]. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[76].

ومن السنة أيضاً ما يؤيد ذلك. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[77]. ويقول: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"[78].

ومن ناحية أخرى يثير القرآن الكريم في الأذهان دواعي التفكر الجاد والنظر فيما يعرضه من حقائق ومعارف، فمرة بصيغة الاستفهام الاستنكاري، كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُم

أنما خلقناكُم عَبثاً﴾79، ومرّة بصيغة النفي للتصورات الساذجة، كقوله تعالى:﴿وما خلقنا السَّموات والأرض وما بينهُما لاعبين ما خلقناهما إلاّ بالحَقّ ولكنّ أكثرهُم لا يعلمُون﴾[81].

إن النظرة العامة إلى الوجود التي أرشد إليها القرآنُ العقل الإنساني، وخاصة العقل المسلم هي الأصل الذي تنبثق منه جميع نظرات الإنسان الفكرية واتجاهاته السلوكية، وهي الأساس في اختلاف وتنوع الحضارات الثقافات.

ثانياً: دعوته النظر في سنن التاريخ:

فقد دعا الإسلام إلى تأمل أحداث التاريخ بنظر ثاقب، وفكر فاحص، وصولاً إلى العوامل التي كانت سبباً في تدهور المجتمعات، وسقوط الحضارات، أو في تطورها وازدهارها، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾81، وقال تعالى:﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[82].

وقال تعالى:﴿ولقد أهلكنا القُرون من قبلكُم لما ظلمُوا وجاءتهُم رُسُلُهم بالبينات وما كانُوا ليؤمنُوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾[83].

إنها دعوة تلح على الناس أن يحركوا عقولهم، وينظروا في تاريخ من قبلهم، حتى لا يكونوا كالقطيع التائه يسير بلا واع نحو المجهول، وهي دعوة ذات منهج مرسوم من أجل الاستفادة من تجارب الحضارات السابقة ودراسة أسباب سقوطها، لا سيّما وأنّ التاريخ تتحكم في صيرورته قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خلوا من قَبلُ ولن تجدَ لسُنّة اللهِ تبديلاً﴾[84].

ولابدّ من التنبيه إلى أنّ دور الدين ومسؤوليته في حياة الإنسان هو إيجاد جوّ من الملائمة والانسجام بين سلوك وتفكير الإنسان وبين سنن الله تعالى في الحياة، وجعل مجرى حياة الإنسان تسير وفق قوانين هذه السنن الإلهية التي جعلها الله نظاماً لخلقه وتكوينه في هذا الكون.

فالدين يوجّه فكر الإنسان إلى النظرة العميقة والهادفة، وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين النظرة السطحية الساذجة للحياة والتاريخ، وبين النظرة العميقة والمتفحصة التي لا

تقتصر على ملاحظة الشيء أو الحدث، وإنما تنفذ إلى أعماقه، بغية استنباط السُّنن التاريخية التي تنطبق عليه .

ثالثاً: التأمل والنظر في حكمة ومقاصد التشريع الإسلامي[85]:

والغرض من ذلك ترسيخ قناعة المسلم بتشريعه وملاءمته وصلاحيته للتتريل والتطبيق في كلّ عصر وفي كل جيل، من أجل أن تنقشع عن فكر المسلم حجب الشبهات التي يثيرها أعداء العقيدة من حوله، كالمستشرقين وغيرهم، وإذا كانت بعض أحكام الدين الإسلامي توقيفية، تدعو المسلم إلى التسليم والالتزام بها، كأمور العبادة، فهناك تشريعات في الإسلام ذات أبعاد اجتماعية كشفت نصوص التشريع عن حكمة تشريعها لمصالح تعود إلى الفرد والمجتمع، من قبيل قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاصِ حياةٌ يأُولي الألباب لعلَّكُم تتّقون﴾[86]، وقوله تعالى: ﴿ما يُريدُ اللهُ ليجعَلَ عليكُم مِن حَرَجٍ ولكن يُريدُ لِيُطهِّرَكُم ولِيُتمَّ نعمتَهُ عليكُم﴾[87].

لذلك قرر العلماء أن أحكام الشريعة الإسلامية قائمة على مراعاة مصالح العباد في المعاش والمعاد، فكل اجتهاد أو نظر في النصوص أو استنباط للأحكام لابد فيه من مراعاة المقاصد، يقول الإمام عز الدين بن عبد السلام:" و الشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح "[88]، ويقول ابن تيمية رحمه الله: "إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح و تكميلها، و تعطيل المفاسد و تقليلها، و أنها ترجح خير الخيرين، و شر الشرين، و تحصل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها، وترفع أعظم المفسدين باحتمال أدناهما"[89]، ويقول ابن القيم رحمه الله :"إن الشريعة مبناها و أساسها على الحكم و مصالح العباد في المعاش و المعاد، وهي عدل كلها و رحمة كلها و مصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور و عن الرحمة إلى ضدها، و عن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة و أن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه و ظله في أرضه و حكمته الدالة عليه"[90].

رابعاً: استقلالية التفكير والاعتماد على الحجة والبرهان في إصدار القرار:

قال رسول الله ﷺ: " لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا "[91]. وقال تعالى: ﴿أفلا يَتدبّرونَ القُرآنَ أم على قُلوبٍ أقفالُها﴾[92].

نداء بليغ إلى النظر وإعمال الفكر، من خلال الاستنكار على السطحيين والمغفّلين المعاندين أولاً، ثم من خلال التقريع العنيف لهذه الأصناف من الناس، ثانياً. وقال تعالى:﴿قُلْ هاتُوا بُرهانَكُم إن كُنتُم صادقين﴾[93]. فلا قيمة لدعوى لا تستند إلى برهان صحيح.

إن الفكر البشري قد يقع في أغلاط كبيرة نتيجة الاعتماد على بعض الكليات العامّة التي استقرت في الأذهان أنها بديهيات لا تحتاج إلى برهان، بينما لم تكن في حقيقة أمرها إلاّ تصوّرات صادرة عن أوهام أو قصور في العقل؛ لذلك فإن فالقرآن الكريم يدعو إلى بناء الفكر على أساس من العلم والبرهان، فكل مقولة ودعوى سواء كانت في العلوم العقلية، أو في العلوم التطبيقية يجب أن تقوم على البرهان والاستدلال العلمي الصحيح.

المرتكز السادس: حرية الرأي وقبول الرأي الآخر في مجالات العلم والبحث:

1 .إقرار الإسلام لحرية الرأي:

إن الحرية ليست من الحقوق التي تقبل التنازل، وليس لأي كان أن يسلبها عن غيره، فالإنسان حر سواء تم الإقرار بحريته أم لا. فهو يولد حراً، هذه الحرية التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، والحرية ليست حقاً فقط، بل هي حق وواجب في آن واحد، لذلك اعتبر الإنسان ــ دون غيره من الكائنات الحية ــ مسؤولاً عما يصدر عن إرادته في الحياة، محاسب عليها ديانة وقضاء، ومؤاخذ على تصرفاته[94].

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات تشير إلى حرية الإنسان، يقول الله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾[95]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[96]. ويقول تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾[97].

هذه النصوص وغيرها تؤكد على حقيقة مهمة وهي: أن الأصل في الإنسان الحرية، فكل إنسان حر في عقيدته وفي فكره وفي عمله وفي قناعاته.

والحرية لا تتجزأ، وليست خاصة بطبقة دون أخرى، فهي شاملة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وفي مختلف أنواع حقول المعرفة، منها: الحرية الفكرية، أي حرية البحث والمناقشة في البحوث العلمية المختلفة، والحرية الاقتصادية، وحرية المعتقد الديني.

وإعطاء الإسلام الحرية للأديان الأخرى بممارسة شعائرها الدينية هو من أوضح الأمثلة على اعتراف الإسلام بحق الرأي الآخر في التعبير عن أفكاره وعقائده وتوجهاته وثقافته وعاداته وتقاليده المختلفة.

وفي التاريخ الإسلامي نماذج مشرقة عن حرية الرأي، وحرية المعارضة[108]. فقد مارس المسلمون الأولون حرية الرأي واقعا عمليا. فكان عامة الناس يعترضون على الخلفاء الراشدين، وكان أهل العلم يختلفون في اجتهاداتهم[109].

ومشروعية حرية الرأي تأتي من حقيقة وجود الإنسان ذاته، فما دام أن الله تعالى خلق كل إنسان بذوق خاص، وعقل خاص، ورغبات مختلفة عن غيره، ولم يفرض على الناس وحدة الفكر والذوق، فان من حق الناس أن يتصرفوا في شؤونهم الخاصة بالشكل الذي يعجبهم، وأن يتخذوا المواقف التي يختاروها، وأن يعبروا عما يؤمنون به، لكن في حدود معقولة، وضمن إطار لا يؤدي إلى الفوضى، ولا يخل بالنظام العام، ولا إلى إلغاء حقوق الآخرين.

إن الله جعل ابتلاءه للعباد على أساس حريتهم، وقدرتهم على الطاعة والمعصية معاً، ولم يشأ لهم أن يحملهم على الطاعة وإلا لفعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[110].

وهكذا فإن سنة الله تعالى قائمة على التعددية، لا الأحادية، وأي إلغاء لحرية الرأي هو إلغاء للتطور، وتجميد للحياة، وأي محاولة لكبت الرأي الآخر سيؤدي إلى المزيد من المشاكل والأزمات، ذلك لأن تعدد الآراء والمفاهيم والأفكار والمصالح جانب إيجابي ضروري في تطور البناء المعرفي لكل مجتمع.

إن الإسلام ــ عبر نصوصه الشرعية ــ يقر مشروعية حرية الرأي وقبول الرأي الآخر، لذلك كان من حق أي إنسان إبداء رأيه في مختلف شؤون الحياة الفكرية والعقدية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإعلامية.

فلا وجود لأية مسوغات شرعية أو قانونية لإلغاء تعدد الآراء، لأن وجود مثل هذه المسوغات هو إلغاء للذات، فكما أن أي إنسان لا يقبل أن تلغى ذاته عن طريق كبت حرية رأيه، فلا يجوز له هو أيضا أن يكون سببا في إلغاء ذات الآخر عبر الحجر على حرية رأيه.

ثانيا: إقرار تعدد الآراء:

إن تعدد الآراء يعبر عن ظاهرة صحية وحضارية، فلا يمكن للمجتمع التقدّم حضارياً بدون رعاية وحماية ((التعددية)) فالبناء الحضاري مرهون نجاحه بحرية الرأي وتعدد الآراء وقبول الرأي الآخر.

وحرية الرأي ضرورة تفرضها الفطرة البشرية وطبيعة الحياة وصيرورة الكون. وهو تعبير عن واقعية الاختلاف في حياة البشر.

أ ـ ففي المجال التشريعي ـ مثلا ـ نلاحظ حرية العقل الاجتهادي في تفسير النص الشرعي واستنباط الأحكام الشرعية. وهو ما أدى ولا يزال إلى الاختلاف الفقهي بين الفقهاء. وهو شيء ضروري وطبيعي لإيجاد حلول لمشكلات الحياة. فالدعوة إلى جمع الناس على رأي واحد، في أحكام العبادات والمعاملات وتنوع الآراء الفقهية ونحوها من فروع الدين هو أمر لا يمكن وقوعه، وأن محاولات رفع الخلاف لا ينتج عنها إلا توسيع دائرة الخلاف. وهي محاولة تدل على سذاجة وقصور نظر. ذلك أن الاختلاف في فهم الأحكام الشرعية الفرعية ضرورة لابد منها[101].

فالاختلاف وتعدد الآراء الفقهية في مجال الفقه ضرورة لا يمكن إلغاؤها[102]. وقد ألف بعض العلماء كتباً في توضيح أسباب الاختلاف بين الفقهاء لتبين مشروعية الاختلاف. مثل كتاب، ((أسباب اختلاف الفقهاء)) لعلي الخفيف، وكتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية وغيرهما.

ب ـ وفي المجال السياسي تبدو حرية الرأي وتعدد الآراء وقبول الرأي الآخر أكثر ضرورة، لأنه ينمي شجرة (الحرية) ويساعد الحاكم على معرفة نقاط الضعف والخطأ. فالنقد البناء ضرورة سياسية. وهي لا يمكن أن تنمو إلا في ظل (حرية الرأي) والرأي الآخر.

وأي محاولة لفرض رأي معين على الطرف الآخر سيؤدي إلى إفرازات سياسية معاكسة، بينما إعطاء الحرية للمجتمع هو وحده الكفيل بخلق الأمن والاستقرار السياسي.

وإذا ربطنا هذا بواقع الناس اليوم نجد العالم الغربي اليوم يعيش في استقرار سياسي، بينما العالم الثالث يموج في بحر من المشاكل والأزمات السياسية. والسبب أن الأول يضمن الحرية للمجتمع في حين أن الثاني تنعدم فيه أبجديات الحرية.

ومن هنا فإن ضمان الحرية للمجتمع هو صمام الأمان ضد أي خطر يهدد الأمة. والرأي الآخر أكثر من ضرورة لضمان مسيرة الأمة في الاتجاه الصحيح.

إن تعددية الآراء والأفكار والاجتهادات في أي حقل من حقول المعرفة إنما يعد ثروة حضارية لا تقدر بثمن. فالتعددية دليل على وجود عقول كبيرة ومتنوعة قادرة على العطاء والإنتاج العلمي. وهي التي يتوقف عليها البناء الحضاري المنشود.

ومن النماذج التطبيقية لذلك نموذج الفقه الإسلامي. فاختلاف الآراء الاجتهادية أثرى الفقه الإسلامي. فنما واتسع. وبرزت مذاهب فقهية كبيرة قائمة على أصول استنباطية، وتتحاكم إلى أدلة شرعية، تتحرك في إطارها عقول اجتهادية مؤهلة كبيرة. تجتهد وتستنبط، وتوزن وترجح وتؤصل، وتقرر القواعد وتبنى عليها الفروع والمسائل المختلفة. وبهذا التعدد المختلف المشارب، المتنوع المسالك، اتسعت الثروة الفقهية التشريعية.

وما دام أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لكل واحد منا عقلاً. وحثنا في أكثر من آية على ممارسة التفكير، واعتبره عبادة عظيمة، فإن من المنطقي بعد ذلك أن نفكر ونجتهد في كل القضايا القابلة للاجتهاد والتفكير. ومن الطبيعي أن نختلف، ومن حقنا أن لا يفرض رأيٌ غيرنا علينا، لكن اختلافنا قائم على أسس عملية متينة، ومبني على قواعد علمية سليمة. والاختلاف بهذه الضوابط رحمة بالأمة.

وإذا كان الاختلاف العلمي رحمة بالأمة فإن الاختلاف الناشئ من اتباع الهوى والمصلحة الشخصية مذموم في الشرع لأنه يفرق الكلمة، ويحوّل المجتمع المتماسك إلى مجتمع كراهية، ينازع بعضه بعضاً ويحارب كل واحد منه الآخر، ويكثر في الأمة الجدال والمراء، وهذا ما حذر منه القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[103]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[104] وقوله تعالى:﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[105]. كما وردت في الأخبار أحاديث مستفيضة تحذر من الاختلاف المذموم. فعن أبي مسعود عن الرسول ﷺ أنه كان يَمْسَحُ مَنَاكِبَ الصحابة في الصَّلَاةِ وَيَقُولُ لهم: اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا)[106].

فالاختلاف الذي يكون مصدره الهوى مذموم في الشرع لما يورثه من فرقة وتنازع وعداوة وبغضاء وكراهية، بينما الاختلاف العلمي الناشئ عن قواعد علمية مجردة يكون

رحمة بالأمة، وتوسعة عليها، وذلك لما يفضي إليه من إنتاج علمي غزير، وثروة معرفية كبيرة، وإثراء ثقافي عريض. ففرق بين اختلاف مشروع واختلاف مذموم، وبين اختلاف رحمة واختلاف نقمة !

المرتكز السابع: ضرورة الوعي بسنن الحياة كأساس للبناء الحضاري للأمة:

إن أي بناء حضاري للأمة ينبغي أن ينطلق من الوعي بالسنن والقوانين التي تتحكم في حركة الكون والحياة باعتبارها المدخل الطبيعي والمنهجي الأساس لتحقيق التكامل والتوازن والفاعلية في حركة الفعل الحضاري. إن السنن باعتبارها هي أساس حركة الكون والإنسان، ينبغي أن تفهم وتستثمر وتوظف في مشاريع البناء الحضاري بصورة شمولية متكاملة تجمع فيها بين سنن الأنفس وسنن الآفاق وسنن الهداية وسنن التأييد الرباني.

فبهذا العلم والفهم والعمل المؤسس على الوعي السُنني يمكن للأمة أن تواجه مشكلة بناء الذات وبناء الفكر، عن طريق بناء الإنسان السُنني القادر على تحقيق ذلك، لأن الإنسان هو آلة التغيير ووسيلته، ومن ثم فإن التكوين السُنني يصبح مركز الاهتمام في كامل المنظومة المتعلقة بالبناء الحضاري. وهو تكوين ينبغي أن تضطلع به كل مؤسسات المجتمع المختلفة، المدنية والإعلامية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

ولعل من الأسباب الجوهرية لضآلة مردود حركات التجديد الحضاري للأمة الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين، يكمن في قصور الوعي بالسُنن واضطرابه لدى القيادات العلمية والفكرية والسياسية التي قادت الحركات التغييرية.

فالعالم الإسلامي منذ صحوته ووعيه بأزمته، وهو يبذل جهودا مضنية من أجل النهضة، لكنه لم يبلغ أهدافه التغييرية، أي أن النتائج لم تكن في مستوى الطاقات والقدرات الكبيرة التي أنفقها في سبيل تحقيق ذلك.

ولعل الحديث النبوي الشريف الآتي الذكر يعتبر نموذجا رائعا في تحليل ظاهرة الأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة، والذي ورد فيه أن رسول الله ﷺ قال: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"107.

و التأمل في أسباب هذا الوهن الحضاري على ضوء المنطق القرآني في فلسفة التاريخ والحضارة، نخلص إلى أن أساس هذا البلاء وهذا الوهن الحضاري المشل والمقعد والمهدر للطاقات، هو ضعف الوعي لدى النخب الفكرية والعلمية والسياسية في العالم الإسلامي بالسُّنن التي أودعها الله تعالى في الأنفس والآفاق والهداية. مع أن القرآن الكريم شدّ اهتمام العقل المسلم إلى ضرورة الوعي بسلطة سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتغيير، وبسلطتها في تسيير مصير البشرية بشكل حاسم ودائم إلى يوم الدين[108].

والإسلام لم يكتف بالتأسيس النظري للوعي بسنن التغيير والبناء، بل أعطى نموذجا عمليا تطبيقيا عبر التجربة النبوية[109] التي جسدت محتوى الوحي على واقع الحياة. فكانت تجربة ناجحة أنتجت نموذجا اجتماعيا متكاملا، انبثقت منه حضارة كبرى لم يعرف التاريخ البشري مثلها، استطاعت أن تؤثر بعمق في مسار البشرية إلى يومنا هذا[110].

الهوامش:

1 – صابر طعيمة، العقل والإيمان في الإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1399هـ/1979م، ص:28 وما بعدها.

2 – قال تعالى: " إقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ". سورة العلق

3 – قال الله تعالى: " ولَقَدْ ذَرأْنَا لجهنّم كثيرًا من الْجنّ والْإِنس لَهُمْ قُلُوبٌ لا يفْقَهُون بها ولَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُون بِهَا ولَهُمْ آذانٌ لا يسْمعُون بِهَا أُولَئك كالْأَنعام بلْ هُمْ أضلّ أُولَئك هُمُ الْغافلُون ". (الأعراف، 179)

4 – هذا قبل تحريف الأديان السماوية، عبر تحريف كتبها المقدسة، كالتوراة والإنجيل.

5 – الذي بقي محفوظا في مصادره المقدسة، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية.

6 – قال تعالى: " يا أيُّها الّذين آمنُوا استجيبُوا لله وللرّسُول إذا دعاكُمْ لما يُحْييكُمْ واعْلمُوا أنّ اللّه يحُولُ بيْن الْمرْء وقلْبه وأنّهُ إليْه تُحْشرُون ". (الأنفال، 24)

7 – قال تعالى: " الّذين آمنُوا ولمْ يلْبسُوا إيمانهُمْ بظُلْم أُولئك لهُمُ الْأمْنُ وهُمْ مُهْتدُون ". (الأنعام، 82)، وقال: " الّذين آمنُوا وتطْمئنُّ قُلُوبُهُمْ بذكْر اللّه ألا بذكْر اللّه تطْمئنُّ الْقُلُوبُ ". (الرعد، 28)

8 – صابر طعيمة، العقل والإيمان في الإسلام، ص:39.

[9] – من ذلك مثلا تسخيرهم للعلم في الحروب والسيطرة. ولا أدل على ذلك من اندلاع الحرب العالمية الأولى والثانية وما خلفتهما من دمار وخراب. وإزهاق للأرواح.

[10] – قال تعالى:" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ". (المجادلة، 11)

[11] – فاطر، 27و28

[12] – روجيه جارودي، لماذا أسلمت للمفكر الفرنسي، ط مكتبة القرآن، ص 73

[13] – روجيه جارودي، المرجع نفسه.

[14] – النحل، 112

[15] – ويصور مالك بن نبي رحمه الله مشكلة انفصال العقيدة عن فاعليتها الاجتماعية فيقول:" ... ولكن عقيدته – أي المسلم – تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد منحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي. وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيحائية، وتأثيرها الاجتماعي. وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، وتملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة". (مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط سنة 1402هـ/1981م، ص: 48)

[16] – الزمر، 10

[17] – المجادلة، 11

[18] – طه، 111

[19] – فاطر، 28

[20] – وعقد الإمام البخاري في صحيحه كتابا حول العلم، ومما جاء فيه:" بَاب فَضْلِ الْعِلْمِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا". وقوله:" بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَوَرَّثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ وَقَالَ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ وَقَالَ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ وَيُقَالُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ".

[21] – انفرد به ابن ماجه في سننه، رواه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. رقم الحديث220.

[22] – أخرجه مسلم

[23] – ابن حديد، شرح نهج البلاغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. ج5. ص:434

[24] – د.كمال لدرع، الواجبات الكفائية فريضة شرعية وضرورة حضارية،مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ربيع الثاني1422هـ/2001م. العدد9. ص.98 وما بعدها.

[25] – الأنفال، 61

[26] – يراجع في هذا المقام كتاب التخلف العلمي في واقع المسلمين المعاصر، تأليف د/ أنس أحمد كرزون ، ط دار ابن حزم بيروت لبنان . وكتاب(الرسول والعلم) للدكتور القرضاوي ط مؤسسة الرسالة بيروت، وكتاب (الإسلام والطاقات المعطلة) للشيخ محمد الغزالي ط دار الكتب الحديثة].

[27] – فقد برز أبو بكر الرازي الذي هو أول من عمل عملية إزالة الماء من العين . وظهر ابن سينا الذي كان كتابه الطبي (القانون) يدرس في جامعتي (كمبردج، وأكسفورد) وغيرهما من مشاهير الأطباء كثيرون. وبرع جابر بن حيان في علم الجبر، ومحاولة الطيران في السماء التي كان أول من فكر فيها عباس بن فرناس...

[28] – وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، دار الصحوة، ط1، سنة 1405هـ/1984م، ص: 98 وما بعدها.

[29] – المجادلة، 11

[30] – البقرة، 247

[31] – آل عمران، 18

[32] – يوسف، 40

[33] – سبأ، 6.

[34] – الحج، 54

[35] – الطلاق، 12

[36] – البقرة، 31

[37] – العلق، 1 إلى 5

[38] – أخرجه الترمذي في باب العلم عن رسول الله، ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم2606، وأخرجه أبو داود في كتاب العلم، رقم:3157، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، رقم219، وأخرجه أحمد في المسند، رقم:20723

[39] – الزمر، 10

[40] – مريم. 43

[41] – أخرجه البخاري

[42] – الإسراء. 70

[43] – البقرة. 30

[44] – د. عبد المجيد النجار. الإنسان في العقيدة الإسلامية. قيمة الإنسان. دار الزيتونة. الرباط. المغرب. ص: 11 وما بعدها

[45] – الأحزاب. 72

[46] – البقرة. 10،11

[47] – الفرقان. 44

[48] – الأعراف. 149

[49] – فعدم الاستماع وعدم التعقل هو الجهل بعينه لأن أبرز علامات الجهل توقف حركة العقل.

[50] – الأعراف. 199

[51] – الزمر. 9

[52] – الرعد. 19

[53] – أي تحريكه واحداث ثورة في داخله حتى يسعى للتخلص من جهله.

[54] – والتكذيب أيضا بمن قبله من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

[55] – على حد تعبير المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله في كتابه ميلاد مجتمع.

[56] – فيملك مدمر.

[57] – الأعراف. 138

[58] – الأحقاف. 23

[59] – يوسف. 89

[60] – النمل. 55

[61] – الزخرف. 22

[62] – الزخرف. 23

[63] – يونس. 78

[64] – الزخرف. 24

[65] – الزخرف. 24

[66] – المائدة. 104

[67] – الأعراف. 28

[68] – الشعراء، 74

[69] – الزخرف، 25

[70] – ويبين القرآن الكريم المصير الخطر الذي ينتظر المتبعين أو المقلدين للأشخاص حيث لا يعنوهم شيئا يوم القيامة من عذاب الله تعالى، فقال مصورا هذا المشهد الذي يحدث يقينا يوم القيامة :" إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب"البقرة، 165

[71] – آل عمران، 190-191

[72] – الذاريات، 21.20

[73] – يونس، 101

[74] – الطارق، 5

[75] – عبس، 24

[76] – الغاشية، 17-21

[77] – آل عمران، 190-191

[78] – ابن كثير اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط7، سنة 1405هـ/ 1975م، ج2، ص:180.

[79] – المؤمنون، 116

[80] – الدخان، 38

[81] – آل عمران، 137

[82] – الأنعام، 6

[83] – يونس، 13

[84] – الأحزاب، 62

[85] – ومما ورد في تعريف العلماء للمقاصد الشرعية قولهم:" الغاية منها و الأسرار التي و ضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها".(انظر علال الفاسي، مقاصد الشريعة و مكارمها، نشر مكتبية الوحدة العربية، دار البيضاء، ص:3)

[86] – البقرة، 178

[87] – المائدة، 7

[88] – عز الدين بن عبد السلام ، قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 سنة 1400هـ/ 1980 م ج1 ص 11

[89] – أحمد بن تيمية، مجمع الفتاوي ، جمع و ترتيب عبد الرحمان بن محمد النجدي الحنبلي ، ج20 ص

[90] – ابن القيم الجوزية . أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج3 ص 14 و 15

[91] – أخرجه الترمذي في البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم:1930. قال أبو عيسى هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفُهُ إلّا منْ هذا الوجه.

[92] – محمد، 25

[93] – البقرة، 111

[94] – قال تعالى:" كل نفس بما كسبت رهينة". سورة المدثر، 38

[95] – الغاشية، 21،22

[96] – البقرة، 255

[97] – الكافرون، 6

[98] – ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، ط5، سنة 1405هـ/1985م، ص:100 وما بعدها

[99] – ظافر القاسمي، المرجع نفسه، ص:53 وما بعدها.

[100] – الأنعام، 35

[101] – رفض الإمام مالك رضي الله عنه تعميم موطئه على الأمصار لما طلب منه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ويروى أن مالكا قال له:" يا أمير المؤمنين عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في البلدان فأفتى كل في مصره بما رأى". انظر (شمس الدين محمد بن محمد الراعي الأندلسي، انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص:208)

[102] – وللمجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي قرار قوي بشأن تعدد المذاهب وموضع الخلاف الفقهي بين المذاهب ، وقد اعتبر تعددية المذاهب واختلافها ثروة فقهية تشريعية، ومن لم يعرف اختلاف الفقهاء لم تشم انفه رائحة الفقه ؟ وآفة كثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعرفون إلا رأياً واحداً ، ووجهة واحدة ، أخذوا عن شيخ واحد ، أو انحصروا في مدرسة واحدة ، ولم يتيحوا لأنفسهم رأياً آخر ، أو يناقشوا وجهة نظر مخالفة أو يميلوا أنظارهم في أفكار المجالس الأخرى مما أدى بهم إلى ضيق في الأفق ، وتعصب في الرأي ، وهجم على الرأي الآخر ، وخلق معركة لا داعي لها ، في حين أن الانفتاح على آراء الآخرين فيه توسيع الآفاق العقلية والعلمية وفيهم أفضل لمدارك وميادين الفتاوى الشرعية ، وانطلاق أرحب في ميدان العلم، وفي شتى حقول المعرفة، فإن تعددية الاجتهادات العلمية في حقول الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والإدارة والقانون ، يعد ثروة علمية لا غنى عنها في أي عملية للبناء الحضاري الشامل .(انظر البيان الصادر عن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته العاشرة المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة من يوم

السبت 24 صفر 1408هج الموافق 17 اكتوبر 1987م إلى يوم الأربعاء 28 صفر 1408هج الموافق 21 اكتوبر 1987م).

[103] – آل عمران. 105

[104] – الأنعام. 159

[105] – الأنفال. 46

[106] – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامة الصلاة وفضل الصف الأول فالأول منها، رقم 654.

[107] – أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم 3745.

[108] – هذه السنن التي لا تحابي ولا تجامل أحدا، فمن عمل وفقها نال نتائجها ولو كان كافرا، ومن خالفها، أو تجاوزها حرم نتائجها وربما عاقبته. قال تعالى:" كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا".

[109] – هذه التجربة التي تبقى محل وتأسي واقتداء لكل مسلم يريد التغيير والبناء، قال تعالى:" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا". الأحزاب. 21.

[110] – لمزيد من التفصيل انظر محمد باقر الصدر، مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن، دار التوجيه الإسلامي، بيروت–كويت، ط1، سنة1400هـ/1980م، ص:32 وما بعدها.